

فلسطين إلى أين؟

محمد دراغمة*

بلال كايد: القيد سلاحاً



عندما يصنع السجان قيداً، والسجان هنا هو المستعمر، فهو إنما يعتقد أنه يوقف زمن السجين - المستعمر - ويحيله ماضياً لا مستقبل له. لكن الفلسطيني كثيراً ما يكسر معادلة السجان / المستعمر، ويحوّل قيده سلاحاً يقتحم به الثقافة والدراسة وسور المعتقل، ويبني حركة وطنية أسيرة، كان لها باع - ولا يزال - في تحديد بوصلة النضال الوطني الفلسطيني.

بلال كايد، واحد من هؤلاء؛ قيّده

المستعمر / السجان، ظناً منه أنه سيوقف عقارب ساعة الأسير عن زهراته العشرين؛ بلال اليوم، يعلن انتصاره على السجان: هو قائد وممثل للأسرى، وقد أتقن على الرغم من قيده ثلاث لغات (الإنجليزية والفرنسية والعبرية) شرع يدرّسها للأسرى الفلسطينيين الموجودين معه، كما أنجز تأليف ثلاثة كتب، تم تهريبها من السجن، والإعداد لطباعتها جارٍ.

عاش بلال كايد حياة شتات فلسطينية مألوفة: ولد في سورية لأب فلسطيني نزع من الضفة الغربية إلى الأردن في حرب حزيران / يونيو ١٩٦٧، وعمل في الجيش الأردني. وفي سنة ١٩٧٣، غادر الأردن إلى سورية، والتحق بحركة "فتح"، ثم انتقل مع عائلته من سورية إلى لبنان. عاد إلى الأردن قبل أن تعود العائلة، بعد تأسيس

* صحافي فلسطيني.

السلطة الفلسطينية، إلى قريتها الجبلية التي هُجرت منها، عصيرة الشمالية قرب نابلس، شمال الضفة الغربية.

ترك بلال، المولود في سنة ١٩٨١، المدرسة مبكراً، والتحق بمركز التدريب المهني التابع لوكالة الأمم المتحدة لغوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى ("الأونروا") في مخيم قلندية. وبعد تخرجه لم يشأ العمل في المهنة التي تعلمها وهي "التدفئة والتكييف"، فالتحق بجهاز الشرطة وعمل في وحدة الحماية. وعندما اندلعت انتفاضة الأقصى في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠، انتمى إلى كتائب الشهيد أبو علي مصطفى، الجناح العسكري للجهة الشعبية لتحرير فلسطين، وشارك في عدة أنشطة وهجمات أسفرت عن إصابة عدد من المستوطنين. اعتُقل بلال في سنة ٢٠٠١، وحُكم عليه بالسجن ١٤ عاماً ونصف عام. كان اعتقال بلال ميلاداً جديداً له، إذ اكتشف، هناك في السجون، ميوله ومهاراته، وعمل على تنميتها ببراعة.

تعلم بلال اللغة العبرية، وأخذ يترجم الصحف، ثم حصل على شهادة الثانوية العامة، والتحق بالجامعة المفتوحة (دراسة عن بعد) لدراسة العلوم السياسية. لكن بعد عامين منعه إدارة السجن من إكمال دراسته الجامعية عقاباً له على دوره في المواجهات بين الأسرى والسجانين.

مرة أخرى، رفض بلال الخضوع لقيود السجن، فبادر إلى تعلم اللغتين الإنجليزية والفرنسية، إلى أن سمحت له سلطات السجن بالدراسة مجدداً في الجامعة المفتوحة، حيث التحق بقسم اللغات، ومجدداً أيضاً أوقفته تلك السلطات عن الدراسة مع باقي الأسرى، ومنعتهم من الالتحاق بالجامعات الإسرائيلية عقاباً لهم في إثر أسر الجندي غلعاد شاليط في غزة.

وفي موازاة تعلم اللغات، تعمق بلال في دراسة الفكر السياسي، فدرس الفكر السياسي وتجارب الشعوب، ووضع مخطوطات لثلاثة كتب حول الفكر الماركسي والعلمانية والإسلام السياسي.

يقول شقيقه محمود (٣٧ عاماً) الذي يدرس الدكتوراه في الجامعة الأردنية، ويعمل أستاذاً للتربية الرياضية في الجامعة العربية - الأميركية في جنين، أنه تلقى مخطوطات الكتب الثلاث التي جرى تهريبها من السجون، بصورة متدرجة وبطيئة، وأعدّها كي يقوم بلال بمراجعتها قبل نشرها، عندما يخرج من الأسر.

يروى محمود الذي تمكّن من زيارة بلال مرتين فقط طوال فترة اعتقاله التي بلغت ١٤ عاماً ونصف عام، أن شقيقه كان يتصرف كقائد. وقال: "كان يدور على الأسرى وعلى عائلاتهم، ويتفقد حاجاتهم قبل أن يتحدث إلينا."

رفاق بلال الذين عايشوه في السجون يصفونه بـ "استثنائي".

يقول مكين سعادة (٢٨ عاماً) وهو من بلدة بلال، وأمضى ثلاثة أشهر معه في سجن مجدو، إن بلال "كان ملجأ الأسرى في كل صغيرة وكبيرة". ويضيف وهو جالس في خيمة الاعتصام المنصوبة أمام بيت بلال: "كان الأسرى يلجأون إلى بلال عندما تحدث أزمة، وخصوصاً مع إدارة السجون، وكانوا يولكون إليه مهمة الحوار، وكان غالباً ما يحقق نتائج جيدة." ويتابع: "عندما كانت تشدد الأزمات كان الجميع يقول أين بلال؟"

اعتُقل مكين بتهمة إيصال أموال إلى شقيقه العضو في حركة "حماس". يقول: "كنت في السجن مع اثنين من أشقائي ينتميان إلى 'حماس'، لكنني انتقلت إلى القسم الذي كان فيه بلال كي أكون بقربه وأستمع إلى محاضراته". وبشأن البرنامج اليومي لبلال في السجن، يوضح: "كان يستيقظ في السادسة صباحاً ويخرج إلى الساحة للعب الرياضة حتى السابعة، بعدها يغتسل ويتفرغ للقراءة والجلسات الثقافية طوال اليوم".

قبل شهر من الموعد المفترض لإنهاء فترة حكمه (١٣ حزيران / يونيو ٢٠١٦)، تلقى بلال تبليغاً رسمياً من سلطة السجن تؤكد فيه موعد الإفراج عنه في الوقت المحدد. استعدت العائلة لاستقبال بلال الغائب الحاضر: شقيقته سهى عادت من ألمانيا لاستقباله؛ عائلته أكملت تأثيث شقته التي جهّزتها له في بيت العائلة؛ والدته التي حُرمت من زيارته طوال العام ونصف العام الأخيرين ابتهجت لقرب لقاءها به، بخلاف والده الذي توفي وهو يحلم بأن يلقاه ويحتضنه.

توجهت العائلة - الأشقاء والشقيقات - بلهفة ١٤ عاماً ونصف عام من الغياب، إلى لقاء بلال عند الحاجز العسكري الأقرب إلى سجنه، "حاجز الظاهرية" جنوب الضفة الغربية، بينما بقيت الأم السبعينية المريضة في البيت، تحتفظ بطاقتها الجسدية الضئيلة لاستقباله. وبعد ساعات من الانتظار في شمس حزيران / يونيو الحارقة تلقى المنتظرون النبأ الصادم: قررت السلطات تحويل بلال إلى الاعتقال الإداري ستة أشهر، ونقلته إلى سجن عوفر العسكري.

قال محمود: "كانت صدمة شديدة لنا جميعاً". ولم يتمكن الأبناء والبنات من تبليغ الأم خشية عليها من شدة تأثير الصدمة، فقرروا إخبارها بالتدريج. أضاف: "في اليوم الأول قلنا لها إن الإفراج عنه تأخر يوماً واحداً، وفي الليل قلنا لها إن هناك خطأ لدى السلطات في احتساب مدة الحكم، وإن إطلاقه سيجري بعد شهر، ثم لاحقاً بلغناها الحقيقة".

تابع محمود قائلاً: "أمي امرأة مؤمنة بالله، واحتسبت الظلم الذي تعرّض له بلال والعائلة عند الله تعالى".

كالعادة، أخفت السلطات الإسرائيلية عن المحكمة، وعن المحامين في مؤسسة "الضمير" الذين يترافعون عن بلال، الأسباب الحقيقية لتحويله إلى الاعتقال الإداري بعد أن أنهى فترة حكمه، وبررت هذا الاعتقال غير المسبوق، بـ "وجود ملف سري".

وتستخدم إسرائيل قوانين الطوارئ التي وضعها الانتداب البريطاني لاعتقال فلسطينيين أطول فترة ممكنة إدارياً، ستة أشهر قابلة للتجديد، من دون أن تقدّم إلى المحكمة السبب الحقيقي للاعتقال، مبررة ذلك بوجود "ملف سري"، وفق ما تنص عليه تلك القوانين التي عفى عليها الزمن.

وعندما عقدت المحكمة جلسة للنظر في الاعتراض المقدم من مؤسسة "الضمير"، بررت النيابة هذا الاعتقال بـ "تأثير بلال في الجمهور".

ونادراً ما تحيل السلطات أسيراً إلى الاعتقال الإداري، بعد أن يُنهي فترة اعتقاله. ويرى من يعرفون بلال أن السلطات الإسرائيلية تخشى من قدرته على بث روح الأمل في الناس، وأنها عندما فشلت في كسر روحه في السجن، أرادت أن تجرب معه مزيداً من السجن.

يقول محمود: "جرت معاقبة بلال على شخصيته، فالمحتلون يعتقدون أن لديه شخصية مؤثرة في الجمهور، ولذلك أبقوه في السجن في سابقة غريبة وخطرة". ويرى محمود أن السلطات الإسرائيلية "أرادت كسر النموذج الذي يمثله بلال، وهو النموذج الذي حوّل السجن من جحيم إلى مركز للمعرفة والثقافة". لكن ذلك أعطى بلال جرعة إرادة أقوى، إذ إنه بعد يومين من إحالته إلى الاعتقال الإداري، أعلن الإضراب المفتوح عن الطعام في سياق ما يُعرف بمعارك الأمعاء الخاوية التي كثيراً ما لجأ إليها الأسرى الفلسطينيون.

شكل إضراب بلال عامل تحريك مؤثراً في الشارع وفي المعتقلات، فنُظمت المسيرات والاعتصامات التضامنية في فلسطين وخارجها، وشرع مئات الأسرى في إضرابات تضامنية معه، ولا سيما الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين أحمد سعادات البالغ من العمر ٦٣ عاماً، والمحكوم بالسجن ٣٠ عاماً. وبعد مضي أكثر من شهرين على إضرابه المفتوح عن الطعام، كان بلال ما زال يرفض أخذ المقويات على الرغم من القلق المتزايد على حياته.

تقول محامية مؤسسة "الضمير" سحر فرنسيس التي زارت بلال في مستشفى برزلاي، إنه كان "يرفض إجراء أي فحوصات طبية وعلاجية، كما يرفض أخذ الفيتامينات والمقويات، وهو يتناول الماء مع كمية قليلة من الملح والسكر، وفي حالات الضرورة القصوى يتناول فيتامين B1، وقد توقف عن تناول هذا الفيتامين بعد مرور ٦٠ يوماً على إضرابه". وبلغ بلال محامية مؤسسة "الضمير" في إحدى زياراتها له أن الأطباء قرروا نقله إلى غرفة العناية الفائقة خشية حدوث تدهور مفاجئ في وضعه الصحي وفقدانه الوعي.

تقول شقيقته سهى (٤١ عاماً) التي قدمت من ألمانيا لاستقباله وبقيت في البلد كي تكون حاضرة خلال معركته هذه، أنها فخورة جداً بما يقوم به بلال، "لكني قلقة على حياته". وشهد مستشفى برزلاي، خلال فترة إضراب بلال عن الطعام، تظاهرات تضامنية قام بها فلسطينيون من داخل الخط الأخضر، ودأبت السلطات على تعزيز الحراسة عليه في أثناء تلك التظاهرات. وقال بلال لمحامية مؤسسة "الضمير" إن عدد الحراس بلغ في حالات التظاهر ٢٥ شرطياً مسلحاً، وإن السجناء كانوا يقيدون يده اليمنى وقدمه اليمنى على الدوام بالسير، لكنهم يضيفون قيوداً أخرى على قدمه اليسرى في أثناء التظاهرات التضامنية معه أمام المستشفى، وإنهم حملوه مسؤولية "تصعيد الأوضاع" داخل السجن وخارجها، وأخبروه أنهم اعتقلوا ثلاثة شبّان في إحدى التظاهرات أمام المستشفى.

وقالت المحامية فرنسيس إن بلال كايد كان يعاني أوجاعاً مستمرة في جميع أنحاء جسده، ووجعاً شديداً في الرأس بشكل متقطع، وانقباضات في الكلى، ونقصاناً مستمراً في الوزن، واصفراراً في الوجه، كما كان يشكو من أوجاع في عضلات اليدين والقدمين. وذكرت أن مصلحة السجن الإسرائيلية لم تستجب لطلب استبدال القيود ونقلها من يده اليمنى إلى يده اليسرى لتخفيف الألم، علاوة على إبقاء السوار الإلكتروني المربوط بجهاز الإنذار على يده اليمنى طوال الوقت.

وأضافت فرنسيس أن بلال كان خلال إضرابه عن الطعام يتمتع بمعنويات عالية، وأنه وجّه الشكر إلى كل من يتضامن معه من أسرى داخل السجن، ومن متضامنين وناشطين

في الوطن وخارجه. وتابعت أن بلال كان يؤكد أن "إضرابه ليس من أجل حرّيته فقط، بل من أجل باقي الأسرى والمعتقلين. وقال أنه مستمر في إضرابه حتى النهاية على الرغم من الصعوبات كافة."

وفي اليوم السادس والخمسين من إضرابه عن الطعام، استقبل بلال مبعوثي اللجنة الدولية للصليب الأحمر، وتحدث إليهم باللغة الفرنسية "لثبت لهم أنه قوي ومتماسك"، وفق قول شقيقه محمود الذي أوضح: "بلغنا ممثل الصليب الأحمر أنه زار بلال، وأنه تحدث إليه بالفرنسية، وأن الأمر بدأ مفاجئاً له، وقال لنا إنه قوي ومتماسك ويقظ الذهن". وطالبت مؤسسة "الضمير" في بيان لها، الأمين العام للأمم المتحدة بان كي مون بضرورة التحرك الفوري والعاجل من أجل إنقاذ حياة بلال، كما طالبت الدول الأطراف السامية المتعاقدة في اتفاقيات جنيف الوفاء بالتزاماتها، واتخاذ جميع التدابير لحماية الأسرى والمعتقلين الفلسطينيين، والضغط على دولة الاحتلال لوقف سياسة الاعتقال الإداري، والإفراج عن بلال كإيد فوراً.

ونجحت التحركات التضامنية والضغط التي مورست، في تعديل قرار محكمة العدل العليا الإسرائيلية التي كانت قد حددت جلسة استماع للنظر في قضية بلال في ٥ تشرين الأول / أكتوبر، أي بعد أربعة أشهر من إضرابه عن الطعام، إلى ٢٢ آب / أغسطس الماضي. وبعد ٧١ يوماً على صموده في معركة الأمعاء الخاوية، أنهى بلال كإيد، في ٢٤ آب / أغسطس الماضي، إضرابه المفتوح عن الطعام بعد رضوخ إدارة السجون لمطلبه بتحديد فترة الاعتقال الإداري وعدم تجديده. وقال رئيس هيئة شؤون الأسرى والمحرّرين الفلسطينيين عيسى قراقع، إن الأسير بلال كإيد علّق إضرابه عن الطعام بعد التوصل إلى اتفاق مع إدارة السجون يُنهي اعتقاله الإداري في كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٦.

وأكدت مؤسسة الضمير لحقوق الإنسان، أن الأسير كإيد أنهى إضرابه المفتوح عن الطعام بعد اتفاق مع سلطات السجون الإسرائيلية يقضي بتحديد فترة الاعتقال الإداري وعدم تجديده.

وتقول مؤسسة "الضمير" أنها ترى "أن انعدام المحاسبة والمساءلة الدولية لإسرائيل جرّاء انتهاكاتها الصارخة لمقتضيات القانون الدولي الإنساني عامة، وتلك المتعلقة في ممارسة الاعتقال الإداري خاصة، هي التي شجعت المحكمة العليا الإسرائيلية على اتخاذ مثل هذا القرار، وهي السبب وراء قيام دولة الاحتلال بممارسة الاعتقال الإداري بوتيرة أعلى، وبحقّ معتقل أمضى مدة محكوميته".

وبين الأسرى الذين أُضربوا عن الطعام تضامناً مع الأسير بلال كإيد، الصحافي عمر نزال. وقالت مارلين الربضي - نزال زوجة الصحافي عمر، التي حضرت جلسة محاكمته، إن عمر يعاني هزلاً شديداً بعد مرور أسبوع على إضرابه. وأضافت: "كانت القيود في يديه وفي رجليه، وكان يمشي ببطء شديد وعلامات التعب واضحة عليه؛ كان جسده هزياً". ونقل محامي "نادي الأسير" عن الصحافي نزال، وكان قد زاره في سجن عوفر العسكري قرب رام الله، إن الجنود "هددوه (عمر) بإطعامه قسراً وعاملوه بوحشية، واحتجزوه داخل عربة نقل لساعات حتى كاد يخنق".

واعتمص عشرات الصحافيين أمام مقر الأمم المتحدة في رام الله تضامناً مع نزال.

وسلمت نقابة الصحفيين رسالة إلى منسق مكتب الأمم المتحدة لعملية السلام في الشرق الأوسط، باسم الخالدي، تضمنت معلومات عن الوضع الصحي وظروف اعتقال عمر نزال. وكان الصحفي نزال، وهو عضو الأمانة العامة لنقابة الصحفيين، اعتُقل في ٢٣ نيسان / أبريل الماضي، على معبر الكرامة، في أثناء سفره للمشاركة في مؤتمر اتحاد الصحفيين الأوروبي، الذي أقيم في سراييفو، وحُكم عليه بالسجن الإداري ٤ أشهر. وتتهم السلطات نزال بالانتماء إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وبالتحريض، لكن عائلته تؤكد أن اعتقاله جاء على خلفية كتاباته الصحافية. ومن الأنشطة التضامنية مع الأسير بلال كايد قيام عشرات الشبان والشابات بحملة للتعريف بقضيته. وتضمنت الحملة التي أقيمت في ملتقى "نبض الطلاب" توزيع منشورات على المواطنين في الشوارع وفي المحال التجارية تضمنت تعريفاً به وبقضيته.

سيرة نضالية

نشر "مركز حنظلة للأسرى والمحربين" بطاقة تعريفية بالأسير بلال جاء فيها: ولد بلال في سورية بتاريخ ٣٠ / ١١ / ١٩٨١، وهو ابن لعائلة مناضلة، فوالده كان في الصفوف الأمامية من رجالات الثورة الفلسطينية. بلال السادس بين إخوته وأصغرهم. وعندما كان عمره عامين انتقلت عائلته إلى الأردن، فالتحق بمدارسها حتى سنة ١٩٩٥، وكان بارزاً في مجال الرياضة. في سنة ١٩٩٥ عاد إلى أرض الوطن وإلى قريته عصيرة الشمالية حيث تابع دراسته والتحق بمعهد قلندية، وتخرّج منه في سنة ١٩٩٨ في مجال التكييف والتبريد. التحق بالشرطة الفلسطينية، وبرع في عمله، وأخلص حتى أصبح يتولى مهمات الحماية. في سنة ٢٠٠١ كان من الحرس المسؤولين عن حماية الشهيد القائد محمود أبو هنود الذي تعرّض موقعه للقصف الجوي الإسرائيلي. في السنة نفسها توفي أخوه الذي كان مقرباً منه بصورة خاصة، في حادث مأسوي سقط فيه من مبنى.

التحق بكتائب الشهيد أبو علي مصطفى التي كان لها دور في مقاومة الاحتلال. في ٤ / ١٢ / ٢٠٠١، اقتحمت قوات الاحتلال منزل عائلته في قرية عصيرة الشمالية، واعتقلته وسجنته بتهمة المقاومة والقيام بعدة عمليات ضد الاحتلال. بعد مرور ثلاثة أعوام على اعتقاله سُمح لوالدته بزيارته. تنقّل في عدة سجون، وشارك في عدة إضرابات للأسرى. قدّم في السجن امتحان الثانوية العامة كي يلتحق بالجامعة، وقُبل في الجامعة العبرية في قسم العلوم السياسية، لكنه مُنِع من تقديم الامتحان على الرغم من تفوّقه. تعلّم، إلى جانب اللغة العربية، العبرية والإنجليزية والفرنسية، وبدأ يتعلم الألمانية في أثناء عزله الأخير.

في ١٩ / ٢ / ٢٠١٥ تلقى بلال خبر وفاة والده الذي فارق الحياة من دون أن يصفح ولده أو يعانقه أو يتمكن من وداعه.

قبل إنهاء محكوميته في أيلول / سبتمبر ٢٠١٥ نُقل نقلاً تعسفياً، ومن دون سابق إنذار، من سجن مجدو، ووضِع في زنزانة انفرادية في سجن غلبوع، ومنه نقل إلى عزل هوليكدار مجرداً من أغراضه الخاصة، ليُحكَم عليه إدارياً بالسجن ٦ أشهر انفرادياً، ومُنِع أهله من زيارته من دون تقديم أي أسباب.

وبعد انتهاء الأشهر الستة جرى تمديد حكم العزل الانفرادي حتى نهاية المحكومية، وكذلك من دون تقديم أسباب.

في ١٣ / ٦ / ٢٠١٦ استعد بلال لمعانقة أهله، ولتتمتع بالحرية، لكنه فوجئ بنقله إلى محكمة الاحتلال في سجن "عوفر" حيث تسلّم قراراً بتحويله إلى الاعتقال الإداري ٦ أشهر إضافية.

رفض بلال هذا القرار الجائر وأعلن إضراباً مفتوحاً عن الطعام. عرض الاحتلال على بلال الإبعاد إلى الأردن ٤ أعوام، لكنه رفض العرض لأنه خيانة لقضيته.

وفي ٢٤ آب / أغسطس، علّق بلال كايد إضرابه عن الطعام بعدما وافقت سلطات الاحتلال على تحديد اعتقاله الإداري حتى كانون الأول / ديسمبر، وعدم تجديده. ■

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

هجرة أو تهجير ظروف وملابسات هجرة يهود العراق

عباس شبلاق

٣٠٨ صفحات ١٢ دولاراً